الضحك فى العســـكرية ....

بقلم

البوزباشى صلاح مصطفى مخيمر

عبارة ناقصة لم تتم وجملة مبتورة لم تكتمل ، بل وليس من حاجة إلى أن تتم وتكتمل فما من مصرى عسكرى إلا وقد صدمت هذه الجملة أذنيه مرات ومرات فى مستهل حياته العسكرية فأثقلت نفسه المرة بعد المرة لتدفعه آخر الأمر بعيداً عن كل ابتسام وبمنأى من كل ضحك. ومن يدرى فلعل المجتمع العسكرى يتخذ من هذه الجملة وسيلة يرغم بها كل ملتحق وملحق على أن يأخذ بأساليبه ويتكيف معه شأنه فى ذلك شأن كل مجتمع صغير يقوم فى قلب المجتمع الكبير ، تحمله غريزة غامضة على أن يخترع وسيلة يلين بها صلابة العادات التى اعتيدت خارجه لتنتبه حوطها وتتكيف وفق بيئتها . ولما كانت الحياة العسكرية فى صميمها انتباهاً حازماً لا يذهل ويقظة جادة لا تغفو فقد حق لها أن تفزع من الضحك لما يصحبه من ارتخاء يذهل الانتباه ويغفى اليقظة ومن ثم كانت قومة المجتمع العسكرى فى وجه الضحك يلوح له بالمهانة أن يرتدع فإن استجاب فبها ، والا أوقع به العقاب المادى وما يزال به يتعقبه ويكيل له الضربة تلو الضربة حتى يقصيه عن صاحبه وينزع بذلك عنه ركاب مجتمعه الأول فيجد بذلك الفرصة كيما يحكم هو ركابه ويوثق لجامه . ولكن من يدرى فلعل المجتمع العسكرى فيما يذهب إليه من مقاومة لكل ابتسام وضحك قد جانب بعض الشىء سبيل فائدته ووقف قليلا فى وجه منفعته فقد يكون للضحك إلى عيوبه ثبت من مزايا تستوجب الوقوف عندها والإفادة منها . وليس فى وسعنا الآن أن نثبت شيئاً أو ننفى آخر فتلك خطوة تلحق بتعرف طبيعة الضحك وما يؤديه من وظائف فى مناحى الحياة عامة كشىء نقيس عليه ونستدل منه بواعثه ووظائفه فى الحياة العسكرية ناصعة أو قانية .

نظرة تاريخية :

يعد الضحك من أدق الظواهر التى تناولها العقل الإنسانى بالدرس والبحث ، انكب عليه الفلاسفة منذ أرسطو إلى اليوم فما اتحدت لهم كلمة ولا اتفق بينهم رأى فهل يفلت الضحك من كل يقين ويضحك منه ؟ تقرر دائرة المعارف البريطانية أن الضحك ظاهرة إنسانية تجعل من الإنسان الضاحك الوحيد بين سائر الحيوانات والمضحك الذى لا يدانيه مضحك بين مختلف الكائنات . ثم تعرض بعد ذلك للدغدغة فترى فيها عملية فسيولوجية بحتة ورد فعل منعكس خالص لا يعبر عن المشاعر الإنسانية من فرح وبهجة وسرور وما إلى ذلك، بينا يعبر الضحك الحق عن هذه المشاعر كلها وينشأ عن ملاحظة أو تذكر أو تخيل أو تأمل فى شىء أو فى آخر فما هو هذا الشىء أو الآخر الذى يضحك دون سواه ؟

تعددت الآراء وتعارضت حول هذا الأمر فلو تجاوزنا من هذه الدائرة محيطها لنشهد هذا التعدد والتعارض وجدنا «هبز»(Hobbes)يقرر أن أى عوج أو نقص أو تشوه فى شخص ما يرفع من قيمة المشاهد فى عين نفسه فيبعثه على الضحك . فالشعور المفاجئ بالعظمة هو المضحك ، نحصل عليه بتعرف عظمة الذات أو تبين حقارة الغير أو بالأمرين معاً . ولكن ما أكثر ما يضحك المرء وهو بعيد عن شعور العظمة بعده عن شعور الحقارة . وما أكثر أيضاً ما يشعر بالأمرين فلا يندفع إلى الضحك أو يميل إليه . وقد حاول « بين » (Bain) أن يصلح من هذا الرأى فزعم أن الضحك ينشأ من شعور بالتفوق على الأقران فى غفلة من العواطف القوية ، ولكن ليس فى هذا القول مع ذلك ما يفسر ضحك الأطفال حين يلهون ويلعبون . فإذا انتقلنا بعد ذلك إلى « دارون » رأيناه يرجع الضحك إلى غرابة تخرج عن المألوف والمعتاد . فيمهد بذلك سبيل « سبنسر » ليرد الضحك إلى فقد فى التناسب ينتهى بالجهد إلى فراغ وبالكبير الهام إلى الضئيل التافه . فيمهد هذا بدوره السبيل لـ « كانت ، شوپنهور ، إيڤ ديلاج » فيرتئى الأول فى الضحك انتظاراً ينحل إلى لاشىء ويحسبه الثانى عدم تناغم نفجاه فيما ندركه أو فيما نفهمه ويظنه الثالث عدم انسجام بين سبب ونتيجته .

ولكن كم من غرابة تصدمنا فلا تبعث على الضحك أو تغرى به ؟ وكم من تناقض نعثر به فى الفكر أو القول أو الفعل أو فى أولاء جميعاً فلا تنبسط له أسارير

الوجه فى كثير أو قليل . وبعد فما إخالنا فى حاجة إلى متابعة هذا العرض التاريخى ، فكل أولئك وما إليها من تعريفات للضحك تقف عند صفة واحدة من صفاته فلا تفسر غير جانب واحد من جوانبه ، وقد تنبه « برجسون » إلى تنكب هذا المنهج جادة الصواب وإخطائه سواء السبيل فلم ينشد تفسيراً هيناً بسيطاً يقتصر فيه على صفة دون صفة بل ينظر إلى الضحك نظرته إلى كائن حى ينسحب عليه ما ينسحب على الحياة من تقدم يتطور فى الزمان وتعقد ينتشر فى المكان . ومن هنا فقد عنى هذا الفيلسوف الفرنسى بكل ما للضحك من صفات فلا ينتهى من تفسيره إلى تعريف بل إلى جملة تعريفات وهو فى هذا يتفق مع جريجورى الذى يثبت أن صيغة واحدة لا يمكن بحال أن تفسر كل جوانب المضحك . وليس أدل على صدق هذه النظرة من أنها انتهت بصاحبها إلى تعرف وظيفة الضحك على نحو لم ينهأ لباحث غيره وقد أشارت دائرة المعارف البريطانية إلى هذا الأمر فحقرت غالبية الفلاسفة الذين وقفوا عند حد النظر إلى الضحك كشىء يصرف الطاقة الزائدة ويريح الرئتين ، فيه إلى ذلك تسلية لحاضر الفرد كما أن النسيان فيه حجب لماضيه والأمل عون على مستقبله ثم أشادت من ناحية أخرى برأى برجسون ونعتته بأنه أهم الآراء وأكثرها طرافة . فالضحك عنده هو ضحك جماعة أبدا تذهب عنه الحياة بنقله عن مجتمعه إلى مجتمع آخر فهو خاص بمجتمع مجتمع ينشأ عنه ويحيا فيه دوماً من أجله يدفع عنه كل تصدع ليحفظ عليه تكامله . وسنرجئ تفصيل هذا إلى الحديث عن المضحك فحرى بنا قبل الخوض فى ذلك أن نقف قليلا لنتساءل عن صور الضحك أهى واحدة تصحبه فى جميع حالاته أم كثيرة تتعدد بتعدد هذه الحالات ؟

تحمل اللغة فى كل يوم دليلا على وجود أنواع مختلفة من الضحك أثيرت بأسباب متنوعة ومواقف متباينة فى قصيدة المرأة للشاعر « هين » يمثل كل قسم من أقسامها الأربعة موقفاً يغاير بالكلية المواقف الأخرى ومع ذلك تنتهى الأقسام كلها بهذه الكلمة « وضحكت » وليس من حاجة إلى القول بأن الضحك فى كل حالة يختلف عنه فى الأخرى ، فهو مرح فى قسمه الأول بعيد عن ذلك شيئاً فشيئاً فى قسميه التاليين حزين منتحب فى قسمه الأخير . فإذا تركنا هذا الحديث اللغوى إلى ميدان البحث الفلسفى وجدنا جريجورى يقابل بين الغضب والضحك ، فالانفعال فى الأول واحد يتبدى فى مظاهر مختلفة ، والحركة الجسمية فى الثانى واحدة ولكن تعبر عن انفعالات كثيرة . والفيلسوف فى هذا الحديث لا يستخدم لفظة الانفعال بمعناها

الاصطلاحى وإنما ليدل بها فحسب على الحالات الشعورية المصاحبة للضحك . ومعنى هذا من الناحية النفسية أن الغضب هو هو فى كل حالاته أما الضحك فكثير يتبدل مع حالة حالة. فلو تابعنا الحديث لتتبين هذه الكثرة رأينا الضحك عنده أقساماً ثلاثة يتلون فى كل منها لونا خاصاً فهو فى الأول عدائى يصور شعور الغلبة أو الاحتقار . . . الخ . وهو فى الثانى ترحيبى يصحب لقاء المحبين ولعب اللاعبين الخ . وهو فى الثالث سرورى يهدف إلى المتاع واللذة. ولكن كوليردج يرفض القسم الأول من هذه الأقسام ويسخر من كل محاولة تربط الضحك بشعور الاحتقار والغلبة ؛ ويوضح « إستمان » هذه النظرة فيستبعد من صور الضحك كل ما يتسم بالمهانة والسخرية ويثنى على فلتير لقطعه كل صلة بينهما ، بينا ينزل اللائمة على المحللين الأول الذين خلطوا بين الأمرين فأشكلوا على البحث سبيله . فإذا انتقلنا إلى « مكدوجال » وجدناه يضيق الدائرة أكثر من سابقيه يرفض القسمين الأولين فلا يبقى غير ضحك التسلية والمتعة . فالضحك عنده غريزة من نوع خاص بمعنى أنها تصطحب تهيجاً انفعالياً ذات صبغة نوعية ندعوها السرور . وهكذا ينتقل الضحك من تعبير عن انفعالات عدة عند جريجورى إلى تعبير عن انفعال واحد عند مكدوجال . فلو تركنا هذا الجانب لننظر إلى صور الضحك من زاوية أخرى فسنجد تفرقة جريجورى بين الكوميديا والفكاهة على أساس التعاطف أو عدمه بين الضاحك والمضحك فالأولى محايدة تخلو من كل تعاطف وعداء أما الثانية فتنطوى أبداً على شىء من التعاطف ، وهذا يتفق مع ما ذهب إليه كوليردج وستنبرى وفرويد وإن اختلفت درجة الاتفاق من واحد إلى آخر . ولكن ميردث يضيف إلى هذين النوعين نوعاً ثالثاً فيجعل من الكوميديا شيئاً يربح الحساسية بينا تثيرها الفكاهة وترجفها المسخرة .

وبعد فأى النظرتين حق وأيهما باطل ؟ وأى الآراء فى هذه أو تلك أدنى إلى الصدق من غيرها ؟ تعريفات الضحك متعددة كثيرة وصوره تلبس أطرا أشد تعدداً وأكثر كثرة . ترى أنتابع التحليل والنقاش ؟ أم ترى نقنع بما انتهى إليه جريجورى من أن الضحك يقاوم كل محاولة تهدف إلى الكشف عنه فلا تنتهى إلى شىء دوجماطيقى جزمى ؟ أغلب ظنى أن التحليل إن امتد فلن ننجو من التخبط والتيه فلندع هذا الجانب التاريخى جانباً أو وراء ولننظر إلى الضحك من جانبيه الضاحك والمضحك .

الضحك من ناحية الضاحك :

يتميز الإنسان من سائر الحيوان بالقدرة على الضحك ، وليس من شك فى أنه لم يمنح هذه القدرة عبثاً واعتباطاً فلا بد وأن تكون لها وظيفة معينة ، ولن نعنى هنا بالجانب الاجتماعى من هذه الوظيفة فقد أجلنا ذلك إلى الحديث عن المضحك ، فحسبنا إذن أن ننظر فى الجانب النفسى ولن نبلغ من هذا شيئاً إلا أن نبدأ بتعرف الضحك من جانبه الفسيولوجى .

يمكن أن نحصل على الضحك الفسيولوجى بطريقة تجريبية بتنبيه بعض مناطق الجسم بواسطة اللمس ويطلق على هذه العملية الدغدغة ، وهى نوعان : سطحية تنتج من تنبيه البشرة تنبيها ضعيفاً ، وعميقة تحدث من تنبيه مناطق الجسم المزدحمة بالروابط العضلية . فالأولى تتعلق بالحساسية الخارجية وتزول بزوال المؤثر وأما الثانية فتتناول الحساسية الوسيطة أو قل الحساسية الباطنية فهى لا تزول بزوال المؤثر . فالآثار الناتجة عنها لا تخفض شيئاً من شدة المنبه بل على النقيض من ذلك تعمل على دعمه وتقويته فيكون كل أثر بمثابة مؤثر جديد تنضاف آثاره إلى الآثار السابقة ، وهكذا حتى تأتى الآثار على الجسم كله فيبدو الشخص غارقاً فى ضحك شديد فإذا استمر التنبيه انتقلت الآثار إلى العضلات الحشوية وتنبهت بعض الغدد وخاصة الدمعية منها فينحد رالدمع وترتخى العضلات ويسكن الجسم فإن تتابع التنبيه بعد ذلك فسيؤدى حتماً إلى الضجر فالغضب وإذا حيل بين الشخص وبين الحركة فقد ينتهى به الأمر إلى الموت . وقد أغفل البعض هذه التفرقة بين دغدغة سطحية ودغدغة عميقة فلم ير فى الدغدغة غير تنبيه يتناول مناطق حساسة فيكتسب بذلك قوة تحصر النشاط النفسى فى ناحية واحدة من الجسم ومن ثم يحدث الارتخاء والميل إلى الضحك . ومهما يكن من أمر فالاتفاق قائم بين الرأيين على مصاحبة الارتخاء لضحك الدغدغة وقد أثبتت الملاحظات التجريبية أن هذه المصاحبة لا تقتصر على هذا النوع من الضحك بل تمتد فتشمل سائر أنواعه بحيث يستحيل علينا من ناحية أن نجد الضحك دون أن نجد الارتخاء ، ومن ناحية أخرى قل أن نجد الارتخاء بغير ميل إلى الضحك فالشخص عند تنويمه مثلا يهبط نشاطه على نحو تدريجى ويسترخى قليلا قليلا فيشعر بميل إلى الضحك دون ما سبب ظاهر يدعو إليه وكذلك الحال فى مدمن الخمر ومتعاطى المخدر فهو ليس بضاحك من نكاته أو نكات غيره بقدر ما هو

باحث عن نكات يبرر بها ضحكه الفسيولوجى . وخلاصة هذا كله أن الصلة قائمة بين الارتخاء والضحك تبدو فى صورة إحالة متبادلة بينهما . ترى أهو ضحك يتبعه ارتخاء ؟ أم ارتخاء ينتهى إلى ضحك ؟ نحن لن نخوض فى النقاش فنتساءل أى الأمرين حق وأيهما باطل فى ذلك ما يدفعنا إلى الجدل العقيم بين چيمس وخصومه . فحسبنا إننا انتهينا إلى وجود صلة التلازم بين الارتخاء والضحك ، ولنتقدم الآن قليلا فنثبت أن الطفل ينتبه شيئاً فشيئاً إلى هذه الصلة القائمة بينهما ، فبعد أن كانت الدغدغة تنتهى به إلى الارتخاء الضاحك فالراحة ينعكس الوضع فيظل أبد العمر يهدف إلى الراحة عن طريق الضحك المتراخى ولكن لم؟ لأن الارتخاء يذهب بكل انقباض وتوتر فيوفر بذلك من النشاط ما كان مستهلكاً ومن ثم تكون الراحة ، وبيان ذلك أن التوتر يؤثر فى الترابط بين الأعصاب وبين المراكز العليا والمراكز السفلى ويحدث فى الأول انفصالا بين القشرة المخية والسرير البصرى الذى هو مركز الانفعال المشرف على الأفعال الحشوية اللاإرادية السمبتاوية والباراسمبتاوية ؛ ومن هنا فإن الارتخاء يعيد للأمعاء وللغازات تنقلاتها . وقد أدرك رابليه ما للضحك المتراخى من أثر فى إزالة التوتر العصبى وإحداث الراحة فعالج مرضاه بالقصص المضحك . فالضحك إذن يريح الضاحك فلنتبين هذه الراحة ما هى وما قيمتها للإنسان . إن الراحة توازن يلحق باختلال بين قوى الإنسان فيعيد إليه التكامل البيولوجى النفسى الاجتماعى ، وبعده وقد تجدد نشاطه لمتابعة العمل من جديد ؛ فما معنى ذلك ؟ حركة الحياة دائرية لولبية وسيرها تقدم يعقبه نكوص يمهد لتقدم جديد أو قل هو كمون بين تقدمين وتمهل بين وثبتين وفى التقدم والوثب جهد يبذل وفى الكمون والتمهل راحة تهيئ الكائن لوثب جديد فتقدم جديد. وليس معنى هذا أن الراحة حالة سلبية تقوم فى توقف الجهد فهى على العكس من ذلك حالة إيجابية وضعية شأنها فى ذلك شأن التعب الذى يمكن للأجهزة أن تقيسه وتتعرف شدته ولا أدل على ذلك من فشل المحاولات التى تهدف إلى الراحة عن طريق اللذة[1] ، يقبل الشخص وهو متعب على اللذات من طعام وخمر ونساء فلا يلبث أن ينتهى من ذلك كله أو بعضه وهو أكثر تعباً وأكثر حاجة إلى الراحة ، فالشعور باللذة يتطلب استعداداً فى الشخص وتهيئا

(١) تقتصر بعض الجيوش المحاربة على الترفيه المادى من توزيع للحلوى والتبغ والخمور ... الخ مغفلة وسائل الترفيه الخفة من قراءة المجلات الفكاهية ومشاهدة للروايات المزلية فلا تصل بذلك إلى راحة جنودها بل تزيد من تعبهم .

منه هو ما نسميه بالراحة . وبعد فما السبيل الحق إلى الراحة الحقة ؟ إنه الارتخاء يتم بصورة تلقائية فى النوم والضحك فيحقق الراحة للشخص ويدفع عنه كل تعب وسأم وكل خوف وقلق .

تقتضينا مطالب الحياة أكبر قدر ممكن من النشاط الجسمى والنفسى فكيف نبلغ ذلك والحياة فى كل خطوة من خطواتها تستلزم الجهد الدائب الذى يذهب بالنشاط ويوقع فى التعب ؛ وهذا الأخير إن ترك وشأنه يقود إلى المرض النفسى فالعقلى . لا بد إذن أن ندفع هذا التعب أولا بأول فنجدد بذلك النشاط ونستطيع من ثم مواجهة مطالب الحياة . وقد لاحظ « جولدشتين » بحق أن مستوى النشاط فى الانسانية ما يزال ضعيفاً بالنسبة لما ينبغى أن يكون عليه فأهاب بكل أمة أن ترفع مستوى الإنتباه عند أفرادها بشتى الوسائل الممكنة فيرتفع بذلك مستوى النشاط عندهم . وسوف نرى فى الحديث عن المضحك أن ليس ثمة وسيلة أيسر من الضحك تضمن هذا الانتباه وتحرص دوماً على رفعه ، بل سنرى برجسون يصر فى كل مناسبة على أن الضحك هو الدواء الخاص لكل انتباه يذهل : يخجل ضحيته فيعيدها صاغرة إلى سابق وعيها وقد تحلت بأيقظ انتباه ممكن . ومعنى هذا كله أن الضحك يحفظ على الشخص انتباهه فنشاطه ويعمل أبداً على دفعهما إلى أمام وإلى أعلى فيتيح له مواجهة مطالب الحياة وقد أبعد عنه التعب وما قد يلحق به من مرض نفسى وعقلى ، ولكن هل ينبغى لنا أن نستمر فى حديثنا دون ما تفرقة نقيمها بين تعب جسمى وتعب نفسى ؟ نعم فليس هناك من التعب ما هو جسمى خالص أو نفسى بحت فتلك ثنائية أتى عليها العلم فيما أتى عليه من فلسفة ديكارت وما يذهب مذهبها . ولن نخدع بأن العناية الإنسانية قد أولت التعب الجسمى اهتمامها قبل أن تنتبه إلى التعب النفسى فحشدت طبها الاكلينيكى بعقاقيره المختلفة وعدلت أدوات الإنسان وآلاته لتقتضيه أقل جهد جسمى ممكن فذلك كله يتفق مع طبيعة الفكر الإنسانى الذى لا يقوى على الطفرة والوثب فيسير فى تدرج مما يحس ويلمس إلى ما لا يحس وما لا يلمس ؛ وها نحن أولاء نجد الإنسانية اليوم وقد تنبهت إلى التعب النفسى تقرر عظيم أهميته وخطير أثره وإن كان لنا أن ننظر إلى الحياة نظرة مادية جدلية فنرى فيها صراعاً بين الأفراد والأفراد ينتهى آخر الأمر إلى صراع بين الأفراد والطبيعة فلن نجد حرجاً فى أن نساير العسكريين فنثبت أن كل نصر يقتضى من القوة المعنوية أو النفسية قدراً يعدل ثلاثة أضعاف ما يقتضيه من القوة المادية أو الجسمية ، ومهما يكن من

نصيب هذه النسبة من الصحة فضرورة القوتين للإنسان أمر لا يقبل الشك والإحالة بينهما قد غدت أوضح من أن تفتقر إلى بيان ودفع التعب عنهما معاً أمر جوهرى لكل إنسان .

ونحن إن خلصنا من هذا إلى أن التعب ككل ، ينال الإنسان ككل بغير ما تفرقة بين تعب نفسى وتعب جسمى فليس معنى هذا أن التعب واحد فى كل حالاته فثمة نوعان من التعب ، تعب ينتج من العمل وتعب ينشأ من الفراغ ؛ وقد تنبه شوپنهور إلى هذه التفرقة حين ارتأى فى الحياة « بندولا » من تعب يترجح بين الألم والملل . فلو نظرنا فى النوع الأول لوجدنا درجات من التعب تستتبع درجات من الراحة فالتعب المنذر بعد أول مرحلة من مراحل التعب ينبه مراكز الدماغ فتنذر بأن الشحنة التى عبئت من أجل العمل قد أوشكت على النفاد فإن تواصل العمل كان الجهد وهو المرحلة الثانية من مراحل التعب يستخدم الطاقة الاحتياطية لدى الشخص ويستلزم شدة فى الدوافع واقتراباً من جانب الهدف ، فإن جاوز الجهد حداً معيناً كان التعب المنهك وهو المرحلة الأخيرة من مراحل التعب يستحيل معه العمل ويمتنع فيه النوم أو يقع فلا يريح صاحبه . وقد أثبتت التجارب أن الضحك بما يصحبه من ارتخاء عصبى يحقق الراحة فى حالتى التعب المنذر والجهد[1] غير أنه يعجز كالنوم عن تحقيق الراحة فى حالة التعب المنهك . ولو نظرنا بعد ذلك فى النوع الثانى من التعب ، أى هذا الذى ينشأ من الفراغ لوجدنا أن الكائن الحى الذى لا يصرف نشاطه عن طريق العمل يلجأ إلى شتى الوسائل للتخلص من هذا النشاط[2] فهو إن لم يصرفه وقع فى التعب تصحبه درجة من الانفعال وليس أدل على هذا مما نشهده فى الحياة من لعب بين صغار الحيوان تجرى وتقفز حيثما اتفق ، وما نلحظه من ميل الأطفال وبعض الرجال إلى اللعب فى شتى صوره ، ففى هذا وذاك ما يكشف عن اللعب كوسيلة مشتركة بين الإنسان والحيوان لصرف الزائد من النشاط غير أن الإنسان يجد فى الضحك وسيلة سهلة ينفرد بها لصرف النشاط الزائد عن حاجة الجسم ومن ثم يحاول الجمع بين الوسيلتين فيلعب ضاحكاً ويضحك لاعباً . انظر إليه فى طفولته يلعب بالدمى والعرائس فيضحك منها . ثم انظر إليه وقد

---

(١) يتطلب العمل فى الواقع الأمامية انتباها متصلا ينتهى بالمحاربين الى التعب والجهد فيلجئون إلى تبادل النكات لتحقيق الراحة .

(٢) يقبع الجند فى خنادقهم بغير عمل فى الواقع غير المشتبكة فى القتال ويتبادلون النكات للحصول على الراحة .

كبر تجده يلعب بالأفكار والألفاظ ويلهو بأشخاص الحياة وأبطال المسرح وهو فى هذا كله واجد ما كان يجده فى ألعاب الطفولة من مرح وضحك ، وقد تنبه برجسون إلى وثيق الصلة بين الضحك واللعب فقرر أن فى الضحك نوعاً من لعب يهيب بالضاحك أن يقبل عليه ويساهم فيه ذلك أن الشخصية المضحكة عنده تفكر وتعمل وتتكلم وهى مسترخية ، تنقطع عن الأشياء وتظل مع ذلك ترى صنوراً وتجمع أفكاراً وما هذا كله ببعيد عن اللعب يلحظه المشاهد وهو متعب من الانتباه الذى تتطلبه الحياة فيعرض لحظة عن التلاؤم الذى يجب أن يقوم ويتجدد بينه وبين المجتمع ومن ثم يستجيب لداعى اللعب فيأخذ بخيوط اللعبة ويشارك فيها فى هذا ما يريح من عناء الحياة ويجدد النشاط لتلاؤم جديد . ومهما يكن من أمر فإن الضحك يحقق الراحة بما يصرفه من نشاط زائد عن حاجة الجسم ، ولكن قد يتساءل البعض معترضاً بأن العمل يصرف النشاط فلم لا يكون كالضحك وسيلة من وسائل الراحة ؟ دفع ذلك أن الفعل لا يحقق الراحة إلا أن يتصل بإرادة فاعلة وهذا أمر قل أن يتفق للعمل الذى ينطوى على كثير من الجبر والإلزام بينما يتفق دوماً للضحك الذى هو فعل حر يتصل بارادة الشخص ويصدر عن اختياره . وبعد فقد أوغلنا فى الحديث عن التعب بشطريه وأبنا ما للضحك من أثر فى إحداث الراحة بتحقيقه الارتخاء أو بصرفه الزائد من النشاط ، فقد بقى إذن أن نلقى نظرة عجلى على ما للضحك من فضل فى دفع الخوف وإزالة القلق .

يلعب المجتمع دوراً هاماً فى تحقيق الراحة النفسية ، يبدو ذلك فى الشعور بالقلق يصيب الفرد وقد انتقل من مجتمعه الأصيل إلى مجتمع جديد يتصف بصفات بعيدة عن صفات مجتمعه السابق[1] فينزع فى حنين جارف إلى مجتمعه الأول ليفلت من هذا القلق الذى يمضه . ولكن الأمر قد لا يقف بالمغترب عند حد هذا القلق فهو إن لم يسارع بالتكيف ويسعى إلى تحقيقه مع المجتمع الجديد ، اشتد به القلق وقست عليه الوحدة وتوهم الاضطهاد يقع عليه من الآخرين ومن ثم يعتدى ليدفع عن نفسه الخوف من هذا الاضطهاد الموهوم ومعنى هذا أن العزلة القلقة تشعر باضطهاد موهوم فتفزع فى خوف إلى الاعتداء على الغير ، ونحن نجد ما يؤيد ذلك فيما انتهى إليه

(١) يشعر الفرد بالقلق عند التحاقه بالجيش وعند إلحاقه بوحدة غير وحدته وعند اشتراكه فى قتال لا يستبين نهايته وقد ينتهى به القلق إلى خوف وهمى يضاف فى حالة الحرب إلى خوف حقيق وغالبا ما يلجأ الضابط الكيس إلى الضحك ليدفع عن أفراده القلق والخوف .

« سيرل برت » من دراسته لجناح الأحداث فيذهب إلى أن القلق الذى يسيطر على نفوسهم يخلق فيهم الخوف فيجنح بهم إلى السلوك الملتوى المشكل فما السبيل إذن إلى دفع الخوف والقلق ؟ . . . إنه الضحك يحقق الارتخاء فيريح كل جانح ومغترب حين يضحك ، ويخجل ضحيته حين تضحك فيعيدها صاغرة إلى سابق وعيها وقد تحلت بأعظم اجتماعية ممكنة لتتكيف وفق مجتمعها فتدفع بذلك عن نفسها كل قلق وتزيل كل خوف .

وأخيراً نستطيع أن نقرر فى كلمات أن الضحك من حيث هو ارتخاء يحقق الراحة من تعب العمل ، ومن حيث هو صرف للزائد من النشاط يزيل عن الشخص كل سأم وملل ، ومن حيث هو ارتخاء من وجه وإرغام على التكيف مع المجتمع من وجه آخر يدفع عن الفرد كل خوف وقلق ، وسنجد فى الحديث عن المضحك كيف يحفظ الضحك على الإنسانية انتباهها ونشاطها ويعمل دوماً على دفعها إلى أمام وإلى أعلى .

الضحك من ناحية المضحك :

تناول كثير من المفكرين بالبحث طبيعة المضحك وجوهره فتضاربت أقوالهم وتباينت تعريفاتهم ولكن اتفقت مع ذلك مناهجهم : نظرة إلى المضحك فمعرفة بواحدة أو ببعض من صفاته العامة فرسم لدائرة فمحاولة وجهد لإثبات أن كل مضحك يدخل ضمن نظامها . وطبيعى أن تتمخض هذه المناهج كلها عن تعريفات واسعة يعوزها الحزم ، فهى وإن لم تمنع شيئاً مما يمكن جمعه فحسبها عيباً انها انتهت بذلك إلى جمع ما يمكن منعه أو هى بقول آخر قد حشدت كل أثر هزلى ضمن محيطها فلم تنتبه إلى تفرقة ما هو مضحك بذاته عما هو مضحك بغيره وقد أدرك برجسون أن تفسير الآثار المضحكة كلها بردها إلى قانون أو تعريف بسيط يعد ضرباً من الخيال ولوناً من السخف فما هذه الآثار غير أشكال متنوعة نسجت على مثال عام ؛ ومعنى هذا أن يقتصر التفسير على بعض الآثار فيردها إلى القانون الذى يحكمها ويكون هذا البعض بمثابة أنماط رئيسية تلتف من حولها أنماط أخرى لا تستند إلى القانون فى إضحاكها وإنما إلى شبه ضعيف أو قوى يربطها بهذه الأنماط الرئيسية .

يبدأ برجسون بتقرير ثلاث ملاحظات تمهيدية فأولى هذه الملاحظات هى أن المضحك إنسانى فإن ضحكنا من غير الإنسان فما ذلك إلا لشبه فيه يذكر به فلن

نقف إذن كما وقف القدامى عند تعريف الإنسان بأنه حيوان ضاحك بل سنذكر دوماً أنه حيوان مضحك . وأما الملاحظة الثانية فهى أن المضحك كى يضحك يحتاج إلى نفس هادئة غير منفعلة ، ولما كان عمل القلب تعاطفاً متصلا وتشاركاً لا ينقطع فقد وجب أن يتوقف عن تأثره لحظة لتهدأ النفس ويعمل العقل فيضحك صاحبه . وأما الملاحظة الثالثة فهى أن الضحك يرتضى المجتمع بيئة له فلا يتجه المضحك إلى عقل فيضحكه ما لم يرتبط هذا العقل مع عقول أخرى وهمية كانت أم حقيقية برباط من التفاهم قد يشتد حتى يبلغ التآمر .

يعود برجسون بعد هذه الملاحظات فيتساءل عن المضحك لم يضحك ؟ رجل يسرع الخطى فى طريقه يمر على حصاة فيسقط ويضحك المارة ؛ موظف يتجه إلى مكتبه ويجلس كعادته فلا ينتبه إلى تزحزح مقعده عن موضعه فيسقط ويضحك من حوله فلم كان الضحك ؟ لأن الواقع كان يقتضى تنبهاً إلى الحصاة وإلى تزحزح المقعد فتوقف الحركة أو تحرف حسبما يقتضى الحال ؛ ولكن لنقص فى المرونة ذهل الانتباه وتصلب الجسم كآلة فاستمر الشخص فى متابعة حركاته أو عاداته فكان أن سقط وكان أن ضحك الناس وسيضحك الناس أبداً ما وجدوا أنفسهم أمام ذهول أو صلابة آلية حيث يقتضى الأمر مرونة إنسانية . ولكن ما ضحك الناس من هذه الصلابة وما حرصهم على هذه المرونة ؟ .. إن المجتمع يقتضى من أفراده انتباهاً يقظاً يدركون به الموقف الراهن ويقتضيهم أيضاً مرونة فى الفكر والجسم والطبع يتلاءمون بها مع هذا الموقف ومن ثم فهو يشفق من أن يستريح فرد من أفراده إلى الآلية السهلة أو يستنيم إلى العادة المألوفة أو يقنع بتوازن جاهز فى ذلك إيذان بنشاط يغفو ويوشك أن ينعزل . إنه تصلب قد ينتهى إلى صدع ينال من سلامة جسمه وتماسك بنائه فعليه أن يبعث اللين فى هذا التصلب الذى يقلقه فيوفر لأفراده أيقظ انتباه ممكن وأشد مرونة ممكنة وبالتالى أكبر اجتماعية ممكنة وإنه ليبلغ هذا كله عن طريق الضحك[1] فالذهول والتصلب والآلية هى المضحك والضحك هو قصاصها .

(١) يضحك الضباط عادة من زملائهم مهندسين وأطباء لعدم تشربهم الحياة العسكرية وضعف تكيفهم مع المجتمع العسكرى : يسخرون من مشية متراخية لأحدهم تحمل الطابع المدنى ويتفكهون بتحية لآخر تنفرج فيها أصابع أو تلتوى اليد ويختلقون النكات عليهم كطبيب يطلب إلى طابور المرضى أن يعد ثم يأمر « بالضرب » للسير الفردية « وبالمزيج » للزوجية ... الخ هذه الوسائل . التى ترغمهم على التكيف الحق مع المجتمع العسكرى .

١ – فنحن إذا نظرنا فى مضحك الأشكال لوجدنا أن التعبير الوجهى المضحك هو تعبير متصلب تعوزه مرونة الحياة وإن انتسب مع ذلك إلى كائن حى. هو تعبير ساكن جامد لا نستشف منه أكثر مما يظهره ولا نرتجى منه أكثر مما يعطيه وإنه ليزداد إضحاكاً كلما عظم حظه من التصلب فأوحى لنا بصورة فعل آلى بسيط. فكم من وجوه تضحك لأنها تبدو وكأنها أبداً صافرة أو نافخة ضاحكة أو باكية ... الخ[1] والتعبير الإنسانى مهما اتسم بأسباب الانسجام ففيه أبداً ما ينذر باعوجاج أو تجعدوهذا بعينه هو ما ينتبه إليه فن الكاريكاتور فيخرجه من حال القوة والكمون إلى حال الفعل والظهور فيغدو بذلك مضحكاً ونغدو بذلك ضاحكين .

٢ – ونحن إذا نظرنا فى مضحك الإشارات والحركات لوجدنا أن كل حركة أو إشارة تضحك إذا ما أوحت لنا صورة آلة تعمل داخل الحى ويشتد الضحك بقدر ما تتداخل الحياة والآلية كل فى الأخرى . فهذا خطيب نلحظ حركاته وإشاراته فنتوقعها فإذا بها تحدث فى اللحظة التى توقعناها فنضحك ولكن لم ؟ لأن فى هذه الحركات والإشارات تخرج مماثلة وفق إيقاع خاص ما يظهر الخطيب وكأنه مجرد آلة تعمل بل ويمكن أن تفك[2]. فالتكرار هو ما يرمز إلى الآلية ويكشف عنها وذلك لأن الحياة تقدم لا يتوقف قط ولا يتكرر ابداًولا أدل على هذا القول أن الضحك لا يصيب حركة أو إشارة إلا أن تتكرر بعينها من حين إلى حين، ومن هنا فإن التقليد المضحك ينصب هو الآخر على الجانب الآلى الذى يستقر فى الكائن الحى أو قل على حركاته وإشاراته المماثلة[3]وليس من شك فى أن الضحك يطرد فى ازدياد كلما اتسع نطاق التكرار وذلك كالحال فى أفراد عديدين يتشابهون فى القامة والزى يخطون خطوات واحدة يذهبون ويجيئون معاً ويميلون ويعتدلون معاً وكأن الناظر بهم آلة شدت فيها الأذرع إلى الأذرع والأرجل إلى الأرجل بأسلاك

---

(١) يعد الجيش أحفل متحف بالوجوه المضحكة إذ يقدم « تشكيلة » من الوجوه هى بمثابة « عينات» من مختلف الأشكال فمن شمال وجنوب ومن ريف وحضر ومن سهل ووعر وفى هذا ما يزيد فرصة العثور بالوجه الجامد المضحك .

(٢) يتكلم بعض القادة فى دفعات . . يقذف دفعة من أوامر ثم يهدأ ثم دفعة أخرى . . إلخ فكأنه رشاش خفيف يعمل .

(٣) يضحك الجنود غالباً بتقليدهم حركات القائد النمطية من هز للكتفين « وتنفيض » للعذاء بضرب الأرض... إلخ أو بمحاكاتهم كلماته الآلية « خد بالك . . . خليك معايه . . . شىء جميل . . . إلخ »

خفية(١). لقد ذهب التوازى بليونة الصورة فأحالها إلى مجرد آلة .

وهنا نتوقف قليلا لأن فكرة الآلية وقد تداخلت فى الحياة هى النموذج الرئيسى الذى يفسره القانون ومن حوله تلتف نماذج أخرى تشبهه من وجه أو من آخر فتغدو بهذا الشبه مضحكة .

فإذا أردنا أن نعاين بعض هذه النماذج وجدنا صورة الصلب والجامد يحاول فى نزق أن يحاكى خطوط الحياة ويساير دوراتها.. يظهر ذلك فى محاولة الزى أن يتابع مرونة لابسه(٢)ويحيا حركاته وسكناته ولكن الألفة تخدع الخيال فيرى الزى جزءاً من لابسه وينصرف بذلك عن الضحك ؛ فإن قدر لهذه الألفة أن تفشل فى خداعها فصل الخيال بين صلابة الزى ومرونة صاحبه فانفجر الضحك وانتقل الخيال تغريه سهولة الأمر إلى فصل ما لا يقبل الفصل فيرى فى لون الزنجى نوعاً من التنكر يدفعه إلى ضحك جديد ثم يرى فى التنكر سهولة تغريه بأن يمتد فيرى فى حصان جز بعض شعره نوعاً من تنكر الطبيعة وينظر إلى المراسيم فيلمح ضرباً من لباس يتنكر فيه المجتمع. وهكذا ينتقل الخيال فى موكب ضاحك يبتعد عن منبعه قليلا قليلا فمن وصل بين منفصلين إلى فصل بين متصلين ومن تنكر فى الإنسان إلى تنكر فى المجتمع والطبيعة . . . وثمة نموذج آخر هو صورة الجسم يطغى كغلاف ثقيل على النفس فيكون منها بمثابة الزى منه : مادة ميتة فوق قوة حية وما إن نشعر بذلك حتى نضحك بل يكفى كيما ينبعث الضحك أن نكون فى موقف روحى فيلتفت الانتباه فجأة إلى الجانب المادى(٣). ومعنى هذا أن العناية بالبدن هى بداية المهزلة. وقد أدرك نابليون ذلك حين قال : إن الجلوس ينقل المرء من المأساة إلى الملهاة . فإذا امتد الخيال من هذه الصورة للجسم يعلو على النفس انتهينا إلى صورة الشكل يعلو على الجوهر وكنا بإزاء مضحك الحرفة حيث تطغى الوسيلة على كل شىء فتذهب عن الغايات قيمتها .

---

(١) يشعر الجندى عند التحاقه بالجيش بميل إلى الضحك من الحركات العسكرية ثم تخدعه الألفة شيئاً فشيئاً عن آليتها المضحكة فلا ينتبه إليها إلا أن يدخل فرد فيكشف عن آلية أشد كأن تدور الجماعة إلى اليمين فيدور هو الشمال . . . إلخ .

(٢) يضحك الجندى الريفى من نفسه فى زيه العسكرى كما يضحك منه أقرانه حتى تأتى الألفة على ذلك .

(٣) تنتسب الحياة العسكرية إلى الروح أكثر منها إلى المادة فيضحك أفرادها من كل زميل يثقله لحمه أو يجره إلى الأرض كرشه .

وبعد فقد بعدنا عن نقطة البد فانتقلنا مع الخيال الهزلى من صورة إلى صورة ومن ثانية إلى ثالثة فرابعة . . إلخ ترى ما سر هذه الدفعة التى تزلق المضحك من صورة إلى أخرى فينشعب ويوغل فى مشابهات ليس لبعدها مدى . . . إنها القوة التى تقسم غصن الشجرة إلى غصينات وجذرها إلى جذيرات. إنه القانون الذى يقضى على كل قدرة حية أن تمتد فى القليل الذى أعطيته من الزمان إلى أوسع مدى تستطيعه فى المكان.

٣ — ونحن لو نظرنا فى مضحك الأفعال والظروف لوجدنا أن كل ترتيب للأفعال والحوادث يضحك حين يشعرنا بنوع من التركيب الآلى وراء الحياة الظاهرة ومثل هذا التركيب الآلى مثل اللحن الموسيقى : صيغة مجردة لها تطبيقات عدة. انظر إلى لعبة العفريت ذى اللولب يدسه الطفل فى علبته فينفلت فيعيد الطفل دسه فينفلت ثانية وهكذا . . . ثم انظر إلى الفأر بين مخالب القط يدعه يفلت وقبل أن يبتعد يعيده إلى قبضته فيهرب من جديد ويعيده ثانية وهكذا... ثم انظر إلى عاطفة أو فكرة محبوسة تنفلت كما ينفلت اللولب وفكرة أو عاطفة أخرى تلهو بحبسها كلما انفلتت... فتلك صور مختلفة لنظام آلى واحد : شىء يريد أن ينفلت وآخر يلهو بحبسه كلما انفلت . وليس بعسير أيضاً أن نلحظ الشبه القائم بين الدمية يحركها الطفل بأسلاك وبين الشخص تحركه إشارة أو كلمة من آخر وإن خيل اليه أنه يتحرك بملء حريته فما هذا وذاك غير شكلين مختلفين لنظام آلى واحد : حركة تأتى من خارج وإن بدت تنبعث من الداخل . حقاً إن الحرية هى التى تسم الحياة بلونها الجذى فلو رأينا وراء الحرية الظاهرة أسلاكاً تشد أو لوالب تدفع لانفجر الضحك على الفور لأن فى ذلك ما يكشف عن صلابة تلبس الحياة أو قل عن حياة ذاهلة(١) .

ها هنا يتوقف برجسون ليتعرف وسائل المضحك بتعرفه خصائص التركيب الآلى فينظر فى خواص الحياة لينتهى عن طريق المقابلة إلى خواص الآلية . فما الحى ؟ تطور فى الزمان يتقدم فلا ينقلب ولا يتكرر ومنظومة مغلقة فى المكان تضامنت عناصرها فما وجد البعض إلا من أجل البعض الآخر بل ويستحيل على الواحد منها أن ينتسب إلى غير منظومته . فإن تساءلنا الآن عن الآلة ما هى استطعنا أن نجيب عن طريق المقابلة بأنها عناصر تتداخل وتقدم ينقلب ويتكرر ومن ثم تكون وسائل المضحك أو خصائص الآلية هى : التكرار والقلب وتداخل السلاسل .

(١) يروض الشخص عند التحاقه بالجيش على التحرك بإرادة غير إرادته ويألف ذلك مع الوقت فتذهب الألفة بما لمضحك الفعال من قدرة على الإضحاك .

(ا) فالتكرار يضحك حين يتناول الأشكال فنضحك من وجهين متشابهين تماماً وهو يضحك أيضاً حين يتناول الحركات والإشارات وهو يضحك ثالثاً حين يتناول الأفعال والظروف فأن يقابل المرء صديقه فليس فى هذا ما يضحك أما أن يتكرر هذا اللقاء فى يوم واحد فى هذا التواجد قطعا ما يضحك .

(ب) وأما القلب فهو أن ينعكس الموقف ويتغير الحال وليس من الضرورى فى شىء أن نشهد الموقفين كى نضحك فحسبنا أن نشهد الواحد ما انصرف الانتباه إلى الآخر وذلك كالشأن فى السارق يسرق والظالم يقع ضحية ظلمه والمتهم يحدث قاضيه فى الأخلاق .

(ج) وأما تداخل السلاسل فهو أن ينتسب موقف إلى سلسلتين من الحوادث فيكتسب بهذا الانتساب معنيين متغايرين فى وقت واحد فيغدو بذلك مضحكاً وقد تكون السلاسل متعاصرة كما هو الشأن فى اللعب التى تنتسب إلى وقت بعينه وقد تكون السلاسل غير متعاصرة فينتسب البعض إلى الحاضر والبعض الآخر إلى المستقبل أو الماضى .

ومهما يكن من أمر التكرار والقلب والتداخل وما يتخذه كل من أشكال مختلفة فكلها ليست غير وسائل نحيل بها الحياة إلى آلة أو على نحو أدق نذهل بها الحياة فتبدو كآلة تكرار ذات آثار تقبل القلب وقطع تقبل الغيار .

٤ — ونحن لو نظرنا فى مضحك الكلمات لوجدنا أنه يسير خطوة خطوة فى أثر مضحك الأفعال والظروف ذلك أن التنكيت هو نوع من الاستعداد فى الشخص يصور به المشاهد الهزلية على نحو من الخفاء والسرعة بحيث ينتهى كل شىء عند البدء به ومعنى هذا أن النكتة هى مجرد إشارة إلى مشهد هزلى ومن هنا جاءت المطابقة بين مضحك الأفعال ومضحك الكلمات حتى قيل إن الثانى ليس غير انعكاس للأول على صفحة اللغة وكيف لا واللغة تذهل عن نفسها أحياناً فتنصاب وتغدو كآلة للنقل والتكرار والتداخل . انظر إليها وقد ذهلت عن نفسها فانطلقت الجمل الجاهزة والعبارات المقررة وفى أثرها أبداً ينطق الضحك. وليس معنى هذا أن العبارة الجاهزة مضحكة بذاتها إذ لا بد من علامة تكشف عن أنها انطلقت من صاحبها على نحو آلى ذهولى ولا يتم هذا الأمر إلا أن تنطوى العبارة الجاهزة على لا معقولية ظاهرة . يبقى بعد ذلك أن نمتد بوسائل المضحك فى الأفعال والأحداث لنتبين إنها هى بعينها فى مضحك الكلمات. نحن أن فعلنا فسنجد القلب أيسر الوسائل

وأعمها. فما إن يسمع محترف التنكيت جملة حتى يقبل عليها يبحث فى عجل عما إذا كان من الممكن أن تظل ذات معنى إذا قلبت فيخلص من ذلك إلى الضحك. وأما التداخل فهو أقل يسراً من سابقه وان أمكن مع ذلك الحصول عليه عن طريق الجناس وما يشبهه فيستفيد المنكت من وحدة الوقع الصوتى فيخلط بين المعنيين ويحصل على الضحك. وأما التكرار فهو أعمق الوسائل جميعاً غير انه يكون هنا لوناً خاصاً يجعل من الدقة أن نسميه نقلا لأنه تكرار من وجه ونقل من وجه آخر. فالنكتة تبقى هى هى أما الأسلوب فينتقل من مستواه الطبيعى إلى مستوى آخر فيغدو بهذا مضحكاً. وصور النقل كثيرة[1] لا يحصيها عد فثمة حدان أقصيان يمكن أن يتم النقل بينهما صعوداً أو هبوطاً فننتقل من النقيض إلى نقيضه أو نضيق المسافة فننتقل من الضد إلى ضده. ومن أشهر المتناقضات تناقض الواقعى والمثالى، الكائن والواجب وما التهكم غير ذكر الواجب على أنه كان بالفعل، وما الفكاهة غير وصف الكائن على أنه الواجب، فإذا انتقلنا إلى نقل التضاد تعددت الأشكال وتكثرت وبرز من بينها على نحو متميز هذا النقل للأفكار العادية إلى المجتمع الحرفى عن طريق المفردات المهنية وكلما اتسع نطاق المفردات تلك اتسع نطاق النقل وفى أثره نطاق الضحك[2].

٥ — ونحن لو نظرنا فى مضحك الطباع لكنا بإزاء المضحك فى موطنه الأصيل فكل ما سبق من أنواع المضحك لم يكن كذلك إلا لشبه أو لصلة تربطه بالإنسان. ترى ما الذى يضحكنا فى الطباع الإنسانية ؟ أهى العيوب اليسيرة دون الخطيرة ؟ كلا فلعل العيب لم يكن يسيراً لولا هذا الضحك الذى يصاحبه ويلحق به وحتى لو سلمنا بأننا نضحك من العيوب اليسيرة فمن ذا يستطيع أن يضع الحدود الصارمة بين يسير العيوب وخطيرها ؟ ! وإن قدر لإنسان بعد أن يضع هذه الحدود فلن يقف الضحك مع ذلك عند العيوب اليسيرة بل سوف يمتد من حين إلى حين ليطغى على هذه العيوب الخطيرة. فلا عبرة إذن باليسير والخطير وإنما العبرة فحسب بأن يكون الشىء عيباً يسر حظه من ذلك أو عظم. صغر أم كبر ونحن لا نعنى بالعيوب ما لها من دلالة أخلاقية فما لنا بهذا شأن وإنما الذى نعنيه هو ماذا من دلالة اجتماعية،

(١) ينقل الجنود قساوة قائدهم الحرفية إلى نطاق حياته الخاصة فيتندرون « بفتيشه » دواليب أبنائه وملاحظته « شد » أسرتهم « وتنميمه » عليهم كل مساء وما يلحق ذلك من محاكمة وجزاء.

(٢) يمتد العسكريون أحياناً بعباراتهم الجاهزة ومفرداتهم المهنية إلى حياة المجندات فيحصلون بذلك على الضحك.

فهما كان حظها من الفضيلة أو الرذيلة فهى مثيرة لسخط المجتمع ومن ثم تدفعه فى غير رحمة إلى ردعها فينهال عليها بضحكات منه لاذعات، وليس معنى هذا أن كل عيب اجتماعى يضحك فما أكثر العيوب التى تدفع إلى البكاء والحزن فمتى إذن يبعث العيب على الضحك ومتى يجر إلى الإشفاق والبكاء ؟ واضح من الملاحظات الثلاث التمهيدية التى أتينا عليها فى بداية الحديث أن المضحك كى يضحك يجب أن يتجه إلى العقل وقد توقف القلب عن تعاطفه فالعيب المضحك هو عيب يحظى بفرصة التوجه إلى العقل فى غفلة من القلب. هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نجد أن العيب المضحك هو بمثابة إطار يفرض صلابته على صاحبه فهما امتزج به فهو محتفظ دوماً بوجوده المستقل . فالشخصية المضحكة هى شخصية غير متحدة الذات وإن كان هذا هو حالها فكيف تتعاطف فتتحد بها وهى ذاتها غير متحدة بذاتها ؟ مؤدى هذا أن العيب المضحك يكون من صاحبه على نحو ذهولى يحيا فيه وإن بقى أبداً غريباً عنه شأنه فى ذلك شأن طفيل وإن كنا قد انتهينا من قبل إلى أن الذهول فى الشخص ضرب من الآلية يكشف عن حظه من اللااجتماعية فقد حق أن نوجز شروط العيب المضحك فى كلمتين : لا انفعالية فى الضاحك ولا اجتماعية فى المضحك .

وبعد فأى استعداد فى الشخص يجعله مضحك الطبع إلى أقصى حد ؟ إنه حب الظهور ، إعجاب بالذات يقوم على إعجاب نتوهم أننا نخلقه فى الآخرين ، إنه العيب المضحك فى جوهره والإطار المضحك بذاته ، به يتعلق على المسرح وفى الحياة أشخاص من دم ولحم يبعثون الضحك قوياً من حولهم ويشتد الضحك ويعظم إذا ما انضافت أطر أخرى إلى هذا الإطار فأكسبته قوة إلى قوته وما هذه الأطر غير الوظائف والحرف صنعها المجتمع بدافع من تقسيم العمل فخلق المجتمعات الصغيرة ضمن المجتمع الكبير وأتاح بذلك الفرصة لحب الظهور أن يتلون لوناً مهنياً ويصطبغ صبغة حرفية[1] فأصبح فى مكنة محب الظهور أن يبلغ تضخيم ذاته بتضخيم مجتمعه الضيق ينحبس فى إطار الوظيفة[2] الصلب وما يتصل به من لهجة وعرف مهنى فيعرض بذلك عن المجتمع الأكبر . ولكن لما كان حب الظهور إعجاباً بالذات وتضخيماً لها فهو إذن نوع

(١) تساعد الحياة العسكرية بما تفرده لأفرادها من زى خاص وما تقدمه لهم من ميزات على خلق حب الظهور المهنى فى نفوسهم .

(٢) يبدو الانحناء أو القسوة الحرفية فيما يروى عن أحد الضباط جلس إلى طعامه فأمر

من ذهول الفرد أو المجتمع الضيق عن حقيقة ذاته وواقعها ولو ترك هذا الذهول وشأنه فسينتهى حتما إلى صدع التكامل الاجتماعى فينعزل الفرد عن مجتمعه أو تنعزل المجتمعات الصغيرة عن مجتمعها الأكبر ، ومن هنا فقد كان ولا بد أن يتدخل المجتمع الواسع ليدفع عن نفسه ما يهدد سلامة بنائه فيسدد الضحكات إلى حب الظهور أينما يجده وفى أى صورة يجده يرد بها عن أفراده ومجتمعاته الصغيرة كل ذهول.

وبعد فها نحن أولاء ننتهى من عرضنا للضحك بشطريه الضاحك والمضحك فلا يسعنا إلا أن نرى فى المجتمع العسكرى أغزر منبع يفيض بشتى صور المضحك فهو من هذا الوجه دعوة متصلة لكل ملتحق وملحق أن يضحك ، ولا يسعنا أيضاً إلا أن نرى فى الحياة العسكرية الدامية تياراً فريداً من العمل يتصل حيناً فيتعب ويجهد ويتمهل حيناً فيمل ويسأم ويتهدده الخطر دوماً فيخيف ويقلق ، فهو من هذا الوجه دفع بكل محارب إلى طلب الضحك ، ومعنى هذا أن المجتمع العسكرى باعث لا يطاوله على الضحك باعث ومفتقر لا يدانيه إلى الضحك مفتقر فواضح إذن أنه يقف فى سبيل مصلحته بوقفته فى طريق الضحك . ولكن أفلا يذهل الضحك بارتخائه الانتباه ويغنى اليقظة ؟ بلى ، فإن القائد الحق يعرف كيف يجانبه عند العمل ويقصيه بعيداً عنه ولكن من غير أن يجهز عليه ليهيب به عند الحاجة فيدفع به كل تعب وسأم ويزيل به كل خوف وقلق .

صلاح حسنى مجمر

« مراسلته » الريق وهو يشير إلى طبق ملىء بالقراولة « اغسل ده » فصدع الجندى للأمر الصارم وعاد بعد لحظة والطبق فارغ ونظيف — وفيما يروى قديماً عن أن بعض الجنود قاموا أثناء القتال بجمع الطلقات الفارغة كما يفعلون أثناء التدريب فى السلم . . إلخ